الحمدُ للهِ، الحمدُ للهِ العليِّ الكبيرِ، العزيزِ القديرِ، {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.. وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}... وأشهدُ أن محمدًا عبدُ الله ورسولُه، ومصطفاه وخليله، البشيرُ النذيرُ، والسراجُ المُنيرُ.. صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وصحابتهِ المغاويرِ، والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم المصير.. أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، اتقوه حق التقوى، واعلموا أن من تواضعَ لله رفعَهُ، ومن تكبرَ على الله وضعَهُ، ومن كان مع الله، كان اللهُ معَهُ، وإذا أردت أن تعرفَ قدركَ عندَ اللهِ، فانظر في هواكَ، وما تميلُ إليهِ نفسُكَ.. {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.. معاشر المؤمنين الكرام: تدارسنا في الخطبة الماضية الثلث الأول من سورة ق، والذي عالج انكار المشركين للرسالة المحمدية ومبعثهم بعد الموت، بأنه من الطبيعي أن يختارَ اللهُ واحداً من الناس، ليبلغهم رسالته، ويعلّمَهم شريعته، وأما البعث بعد الموت، فإن إعادة الخلقِ أهونَ من ابتدائه.. وأن من يتبصر في كتاب الكون المفتوح، يوقنَ بقدرة الله المطلقة على الخلق، وأنَّه قادرٌ سبحانه على أن يُحييَ الأجساد يوم القيامة ويبعثها.. وحيث أن ديدن جميعِ الكفار، هو العناد والإصرار، فقد ذكّر الله بمآل بعض من كذب الرسل من الأمم السابقة.. تَسليةً لِرَسولِه ﷺ، ولعل قومه يحذرون..

ثم يأتي الثلث الثاني من السورة: استطراداً مع قضية البعث، التي عالجها سابقاً؛ ولكن بلمساتٍ جديدة، رهيبة شديدة.. فهي تتحدث عن علم الله الشامل بالإنسان، وأنه في قبضة الله المحكمة، وتحت رقابته الصارمة الدائمة.. وإنه لأمرٌ يملأ القلب خشيةً ورهبة.. كيف لا ؟.. والانسان لو شعرَ أن جواسيساً يراقبونهُ عن كثب، ويتتبعونه أينما ذهب، لخاف منهم واضطرب، ولانقلب حاله رأساً على عقب، علماً أنه مهما كانت إمكانياتهُم فهم لا يرصدون إلا ظاهره.. كما أنه من الممكن أن يفلت منهم، بينما قبضةُ الجبار قبضةٌ محكمة، وسلطانه سلطان عامٌ مطبق، (أين ما تكونوا يأتي بكم الله جميعاً، إنّ الله على كل شي قدير)، ورقابتهُ جل وعلا رقابةٌ صارمة، فلا تخفى عليه خافية، (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور).. (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)، تأمل: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ \* إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشّمَالِ قَعِيدٌ \* مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}.. (ولقد خلقنا الإنسان).. فيها إشارةٌ إلى أن صانع الشيءِ أدرى بصنعته، فكيف بالخالق جل وعلا؟ {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}.. فالله مطلعٌ على ظاهر الإنسانِ وباطنة، وإلى أدق الوساوسِ والخطرات الخفيةِ في أعماق صدره، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ).. وفي الآية تأكيدٌ على سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى بأحوالِ عباده، وتحذيرٌ لهم من مجرد التفكير بما يغضبه تَعَالَى، فهو بِعِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ سبحانه، وَبمَلَائِكَتِهِ المكلفين، أقربُ إِلَى عَبْدِهِ مِنْ عِرق الوريد الَّذِي فِي رَقَبَتِهِ.. {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ}.. وكل هذا يؤكدُ إحكام سيطرة الجبار، وقوة رقابته، ودقة متابعته.. {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَار}، ووالله لو استحضر العبد هذا الأمر بحسه، واستيقنه بقلبه، ما تجرأ على شيءٍ مما لا يرضى ربه.. ولاَستَحى من الله أن يَراه حيثُ نهاه، أو أن يَفقِدَهُ حيثُ أَمَره، ولحاسب نفسه على كل تفريطٍ وتقصير.. فها هي الآيات تستطرد في بيان قوة الرقابة، ودقة المتابعة.. فإذا الإنسانُ يعيشُ حياته كلها محاصراً بين ملكين كريمين مكلفين به، أحدهما عن يمينه يرصد الحسنات، والآخرُ عن شماله يرصد السيئات.. {إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشّمَالِ قَعِيدٌ \* مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}.. أي حاضرٌ رقيبٌ، لا يغفَلُ ولا يغيب، يرصده على مدار اللحظة.. قال الإمام سفيان الثوري لأصحابه يوماً: لو كان يجلس معكم مَن يرفع حديثكم إلى السلطان، أَكُنتُم تتكلمون بشيء يُغضِبه؟.. قالوا: لا، ومَن يجرؤ على ذلك.. قال: فاعلَموا أنّ الملائكة ترفع حديثكم إلى ربّكم.. وعن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أنْ تَبلُغَ ما بَلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ له بها رِضوانَه إلى يومِ القيامةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أن تَبلُغَ ما بلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بها عليه سَخَطَه إلى يومِ القيامةِ)، فكان عَلْقمةُ يقولُ: (كم مِن كَلامٍ قد مَنَعَنيه حديثُ بلالِ بنِ الحارِثِ)..

قال تعالى: {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بالحقَّ}.. جاءت شَدائِدُ الموت وغمراته، لينكشف للمكذب ما كان ينكره من الحقّ، وليرى حقائق الآخرة كاملة، وليتيقن منها عياناً، لكن بعد فوات الأوان، وحين لا ينفع اليقين.. {ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ}، فالموت هو أشدُّ ما يحاول الانسانُ أن يهربَ منه ويروغ، وأنى له ذلك: فالموت زائرٌ لا يخلف الميعاد؛ وطالبٌ لا يفوته ما يطلب، {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ}، وإنّ مما يزيد الموت رهبةً شدة السكرات، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «لا إله إلا اللهُ، إنَّ للموتِ سَكَراتٍ».. اللهم فارحمنا وهون علينا سكرات الموت.. ثم ينتقل الخطاب من سكرة الموت، إلى هول الحشر والحساب: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ \* وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ \* لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}.. ويا له من مشهد، ففي الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال: «كيفَ أنعَمُ وصاحِبُ الصُّورِ قد التقَم القَرْنَ وحَنَى جبهتَه ينتظِرُ متى يُؤمَرُ أنْ ينفُخَ".. {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}.. فالنفس إذن هي التي تحاسب، وهي التي تتلقى الجزاء. وهي حين تأتي يأتي بها سائقٌ من الملائكة يسوقها، وشاهدٌ من الملائكة يشهدُ لها أو عليها.. وهذا المشهد المروع أشبهُ بما يحدث للمتهم في المحكمة، ولكن بين يدي الجبار جلّ وعلا، فلا مقارنة.. حيثُ يوبخ المكذِّبُ في هذا الموقف العصيب، فيقال له: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا}، (لَقَدْ كُنْتَ) فِي الدنيا (في غَفْلَةٍ) وشكٍ (مِنْ هَذَا) الموقف العصيب، فلم تصدق به، ولم تستعد له، (فَـ) اليوم حين (كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ)، وظهرت لك الحقيقة كاملة، وأبصرت من الأهوال والنكال ما لم يخطر لك ببال، وتيقنت أن ما تعاينه ليس وهماً ولا خيال.. (فـ) إن (بَصَرُكَ الْيَوْمَ) قويٌّ (حَدِيدٌ).. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِين}..

ونكمل بإذن الله ما تيسر من التدبر في الخطبة الثانية..

أقول ما تسمعون...

..

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى.. أما بعد فاتقوا الله عباد الله وكونوا مع الصادقين، وكونوا {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَاب}..

معاشر المؤمنين الكرام: بعد أن تنكشف حقائق الآخرة للمكذب وقبل أن يستيقظ من هو الصدمة، يتقدم قرينهُ من الملائكة ليشهد عليه، وهو الرقيب العتيد الذي كان يدون كل ما يصدر عنه في سجل أعماله: (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا)، هو السجل الذي رصدت فيه كل (مَا) عمله في الدنيا، ها هو (لَدَيَّ) جاهزٌ (عَتِيدٌ).. ويقول الحق جل وعلا: {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون}.. وبما أنّ كل ما في سجل اعمال هذا المكذب أعمالٌ كفّريةٌ مُشينة، تُدِينُه وتودِي به إلى الهلاك.. وبما أنّ الحكم العام على كل مشرك مُعاندٍ لله ورسوله، هو الخلود في جهنم، لذلك يأمر الله الملكين بإلقائه فيها.. {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ \* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ \* الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}.. وعندها يفزع قرينه من الجن ويخاف، ويبادر إلى إبعاد التهمة عن نفسه، {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}.. هكذا يتبرأ من اغوائه وإضلاله؛ ويتهمه أنه كان بطبعه بَعيدًا عن الحَقِّ والهدى، ميالاً من تلقاء نفسه نحو الضَّلالِ والردى.. بل ويصفه بأنه كان شديد الضلال والغواية.. وحيث أن هذا النزاع لن يفيد الخصمين شيئاً، فإنّ الله يحسم الأمر: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ \* مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيد}.. لا تختصموا أمامي فقد سبَق وأن حذرتكم وأرسلت لكم الرسل، وانزلت عليكم الكتب، وأقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا، فما لكم من عذر، وحُكمي لا يتغير ولا يتبدل، فإني أجازي كل عاملٍ بحسب عمله، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه \* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه}، {وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}..

بهذا ينتهي مشهدُ الحساب الرهيب، لينتقل إلى مشهد الجزاء الأرهب: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}.. وسؤال الجبار جل وعلا لنار جهنم وجوابها, يتجلى فيه مشهدٌ مرعبٌ مخيف.. فنارُ جهنمَ رغم كثرة ما يُقذفُ فيها من الكفار، إلا أنها حين تُسأل: {هل امتلأت}، تتلمظ وتزفر غضبًا لربها؛ وغيظًا على المكذبين.. {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}.. فيا له من هولٍ مرعب.. بينما في الجهة الأخرى مشهدٌ على الضد من ذلك.. مشهد جميلٌ رائق، إنه مشهدُ الجنة وهي تقتربُ من المتقين، نعم الجنةُ تقترب من المتقين, ليتأملوها من قريب، ويروا ما فيها من الملك العظيم، والنعيم المقيم: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}.. ويقال لهم على وجه التهنئة والترحيب: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ}، هذه هي الجنة التي وعدَ الله بها كلَّ (أوَّابٍ حفيظ) قلبه متعلقٌ بربه، سريع الرجوع والأوبة إليه، حفيظٌ لحدود الله؛ محافظٍ على أداء الفرائض والواجبات.. {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}، ملازمٌ لخشيةِ الله في الخلوات، كثير الإنابة والتوبة والطاعات، حريصٌ على ما يرضي ربه، بعيد عن كل ما يسخطه.. ثم يؤذن لهم بدخولها: {ادْخُلُوهَا بِسَلَام}.. أدخلوها بسلامٍ آمنين.. آمنينَ من كل ما يكدر صفو نعيمهم.. {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ}.. فنعيمهم دائمٌ لا يزول عنهم، لا يزولون عنه.. ثم يعلن في الملأ الأعلى، تنويهاً بشأنهم، وبياناً لما لهم من الكرامة عند ربهم: أنّ {لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد}.. وهو كقوله تعالى في سورة الزخرف: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، فمهما اقترحوا، ومهما تمنوا ومهما تخيلوا، فإنهم لن يبلغوا ما أعده الله لهم.. فالمزيد من ربهم غير محدود..

وأعظم ذلك وأفضله رضوان الله الدائم عليهم، مع لذة النظرِ إلى وجه الله الكريم؛ والتمتعُ بسماع كلامه الجميل؛ والتنعّمُ بقربه الجليل.. في صحيح مسلم: قال ﷺ: "يكشف الحجابَ؛ فما أُعطوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}.. نسأل الله من واسع فضله، وعظيم كرمه..

وبقي لنا مع هذه السورة المباركة وقفة أخيرة، نتدارسها بإذن الله في خطبة قادمة..

فيا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت، واحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، وكما تدين تدان..

اللهم صل على محمد..